تعليقات فضيلة الشيخ

صالح بن فوزان الفوزان

على كتاب

إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان

للإمام ابن القيم رحمه الله

«الشريط السادس عشر»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد..

المتن: قال المؤلف رحمه الله تعالى: الباب الثامن: في زكاة القلب

وقال قتادة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩] "من عمل خيرا زكاها بطاعة الله عز وجل" وقال أيضا: "قد أفلح من زكى نفسه بعمل صالح" وقال الحسن: "قد أفلح من زكى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله تعالى، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله.

الشيخ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧ – ١٠] أقسم الله سبحانه وتعالى بالنفس، نفس الإنسان لأنها مخلوقة لله عز وجل، الله جل وعلا يقسم بما شاء من خلقه ولا يقسم إلا بشيء له أهمية والنفس لها أهميه لأنها إما أن تكون شقيه وإما أن تكون سعيدة، ولها خواطر ولها أفكار، فهي من عجائب مخلوقات الله، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أي والذي سواها، خلقها وأوجدها، أو وما سواها أي وتسويتها، فتكون ما مصدريه كما سبق بيانه، ثم قال ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ إختلف المفسررون إلى أين يرجع الضمير المستتر في قوله زكاها؟ من هو الذي زكاها؟

قيل هو الله سبحانه وتعالى، الله يزكي بعض النفوس بالأعمال الصالحة والأفكار الجيدة، والتزكية معناها التطهير، فالطاعات تطهر النفس.

ومن معاني التزكية: أي التنمية، تنمي الخير، الطاعات تنمي الخير في النفس، وهذا بيد الله هو الذي يزكي ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩] فالنفس التي زكاها الله بالطاعات والقربات قد أفلح صاحبها، أفلح يعني فاز صاحبها.

وقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ أي قد فاز من زكى الله نفسه على أن الضمير يرجع إلى الله، ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ أي خسر ﴿مَن دَسَّاهَا﴾ كذلك؟ دساها الله بذنوبها، بسيئاتها حتى تدست

في التراب أي اختفت في الرغام والتراب لحقارتها، الذنوب تدنس النفس وتحطها إلى أسفل، والله هو الذي قدر لها ذلك بأفعال صاحبها، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ من دسى الله نفسه بالذنوب والمعاصي والمخالفات.

والقول الثاني: أن الضمير يرجع إلى صاحب النفس، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي زكى نفسه بالطاعات والقربات، فالإنسان هو الذي يزكي نفسه بالطاعات والخيرات، يكسب لها الخير فيرفعها به، وهذا لا يخرج عن الله سبحانه وتعالى هو الذي وفق الإنسان لأن يزكي نفسه بالطاعات، ولولا توفيق الله ما حصل له ذلك، ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ أي خسر من دسى نفسه أي حطها في الرغام والتراب ودسها بدل أن يرفعها دساها بالمعاصي والذنوب، فالإنسان هو الذي يزكي نفسه بالطاعة، أو يدنسها بالمعاصي على هذا التفسير.

وكلا التفسيرين صحيح، فخلاف العلماء المفسرين لا يختلف، لأن كل واحد منهم أخذ باحتمال، والآية تحتمل المعنى الأول وتحتمل المعنى الثاني، وهذا ما يسمونه باختلاف التنوع وليس اختلاف التضاد.

لكن نرجع إلى أن الإنسان هو الذي يزكي نفسه والله جل وعلا قال ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] يعني التزكية تختلف، تزكية بالمدح وأن الإنسان يكمل نفسه هذا لا يجوز ومنهي عنه، ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ يعني لا تمدحوها وتكملوها، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ فالتزكية بالمدح للنفس لا يجوز، لا يجوز للإنسان أن يمدح نفسه، وأما التزكية بالعمل الصالح والطاعات فهي تزكية صحيحة، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ بالطاعات والقربات فلا اختلاف بين التفسيرين والحمد لله لأن الآية محتملة، حاملة للمعنيين، كل أخذ باحتمال.

المتن: تعالى" قال ابن قتيبة: "يريد أفلح من زكى نفسه، أي أنماها وأعلاها بالطاعة والبر

الشيخ: دل على أن المزكي هو صاحب النفس.

المتن: "يريد أفلح من زكى نفسه، أي نماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة، واصطناع المعروف" ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي، والفاجر أبدا خفي المكان، زَمِر المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس.

الشيخ: نعم ذليل، العاصي ذليل مهما كان عنده من المال، من الرفعة، من الملك، هو ذليل في نفسه، المعاصي تُذل الإنسان، وأما الطاعات فهي ترفع الإنسان وتعليه بالحق، فتجد أن أصحاب الطاعات مرتفعة نفوسهم، وتجد أن أصحاب المعاصي نفوسهم منخفضة وهم ذليلون، صاحب الطاعة عزيز، صاحب المعصية ذليل، هذا أثار الطاعات وآثار المعاصي.

المتن: والفاجر أبدا خفي المكان، زَمِر المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس، فمرتكب الفواحش قد دس نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها.

الشيخ: وهو لا يريد رفعها ولكن الله يرفعها بعمله الصالح.

المتن:وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبى ويفاع الأرض لتشهر أماكنها للمعتفين.

الشيخ: نعم كرام العرب ما ينزلون في الأمكنة المنخفضة في الفلات؛ إنما ينزلون في الأمكنة العالية ويوقدون النار من أجل الأضياف، يأتون إليهم فهذا من الشرف، وأما البخلاء تجدهم ينزلون في المنخفضات لئلا يراهم أحد، الكرم يرفع أصحابه والبخل يخفض أصحابه.

المتن: وكانت أجواد العرب تنزل الربى ويفاع الأرض لتُشهِر أماكنها للمعتفين.

الشيخ: الرُبى المرتفعات جمع ربوة.

المتن:وكانت أجواد العرب تنزل الربى ويفاع الأرض لتشهر أماكنها للمعتفين.

الشيخ: المعتفين يعني الضيوف.

المتن: وتوقد النيران في الليل للطارقين، وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام، لتخفي أماكنها على الطالبين

الشيخ: ذلة، لأن فيهم ذله ولا يريدون أن يتبينوا للناس.

المتن: وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام، لتخفي أماكنها على الطالبين، فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها، وأنشد:

الشيخ: أنشد يعني إبن قتيبه، ابن قتيبة من أئمة اللغة وإمام مشهور صاحب سنة وعقيدة صحيحة.

المتن: وأنشد:

وَبَوَّأت بَيْتِكَ في مَعْلَمٍ رَحيبِ المباءَةِ وَالمسْرَحِ

كفَيْتَ الْعُفَاةَ طِلابَ الْقِرَى وَنَبحَ الْكلابِ لِمُسْتَنْبِح

الشيخ: كان الضيوف أيضا يهتدون بنبح الكلاب، يأتون على نبح الكلاب إلى الأجواد من العرب فهم يشتهرون بشيئين:

- بالنار في الليل الواضحة تُرى من بعيد
- وبنبح الكلاب التي يتخذونها لحراسة المواشي.

وأما البخيل فتجد لا يُسمع له صوت، ولا تُرى له نار، فهو منخفض حسا ومعنى.

المتن: فهذان قولان مشهوران في الآية.

وفيها قول ثالث: أن المعنى: "خاب من دس نفسه مع الصالحين وليس منهم"، حكاه الواحدى، قال: ومعنى هذا: أنه أخفي نفسه في الصالحين، يُري الناس أنه منهم وهو منطو على غير ما ينطوى عليه الصالحون.

وهذا- وإن كان حقا في نفسه- لكن في كونه هو المراد بالآية نظر، وإنما يدخل في الآية بطريق العموم، فإن الذي يدس نفسه بالفجور إذا خالط أهل الخير دس نفسه فيهم، والله أعلم.

الشيخ: على كل حال هو يخفي نفسه، سواء أخفاها في منخفض من الأرض أو أخفاها بين الكرام، واندس بينهم.

المتن: الباب التاسع:

في طهارة القلب من أدرانه ونجاساته

هذا الباب وإن كان داخلا فيما قبله، كما بينا أن الزكاة لا تحصل إلا بالطهارة، ولكنا أفردناه بالذكر لبيان معنى طهارته، وشدة الحاجة إليها.

الشيخ: يعني هذا الباب زيادة توضيح للباب الذي قبله وإلا فهو بمعناه لم يأت بجديد.

المتن: فأفردناه بالذكر لبيان معنى طهارته، وشدة الحاجة إليها، ودلالة القرآن والسنة عليها.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر: ١ – ٤].

الشيخ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾هذا خطاب للرسول ﷺ، خاطبه في الأول بقوله يا﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل: ١ – ٢] ثم قال له بعد ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ والدثار هو الغطاء، قم من نومك ودثارك إلى الإنذار، قم فأنذر: أنذر المشركين، يقول الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله في ثلاثة الأصول عن الرسول ﷺ: نبئ بإقرأ وأرسل بالمدثر، فثبتت نبوته بسورة اقرأ باسم ربك، ثم إن الله رفعه إلى الرسالة فقال﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾يعني بلغ الناس وادعهم ولا تقتصر على نفسك، ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر: ٢ – ٤] هذا محل الشاهد، ثيابك فطهر يعني: نزه أعمالك من الشرك والبدع، فدل على أن التطهير يطلق ويراد به الطاعات.

المتن: وقال تعالى:﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٤١﴾ [المائدة: ٤١]

الشيخ: هذا عمل اليهود ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ﴾ [المائدة: ٤٢] فاليهود لهم أعمال خبيثة منها أكل السحت وهو الرشوة، ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ ولا يسمعون للحق، ما يستمعون للحق وإنما يستمعون للكذب والباطل هذا في اليهود ومن تشبه بهم، ثم قال﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ لأن هذه نجاسات، أكل السحت وسماع

الكذب هذه نجاسات معنوية، فهم نجسوا أنفسهم بها، والسبب أن الله جل وعلا لم يُرد قضاء وقدرًا أن يطهر قلوبهم.

المتن: وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هاهنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأخلاق والأعمال.

الشيخ: ثيابك يعني قلبك فطهر أو أعمالك فطهر

المتن: قال الواحدي.

الشيخ: الواحدي هذا من أئمة التفسير، وله تفسير طبع أخيرًا ضخم جيد.

المتن: قال الواحدي: اختلف المفسرون في معناه، فروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال "يعنى من الإثم، ومما كانت الجاهلية تجيزه"

الشيخ: يعني طهر قلبك من الإثم وطهر قلبك من أعمال الجاهلية.

المتن: وهذا قول قتادة ومجاهد، قالا: "نفسك فطهر من الذنب".

الشيخ: قتادة من أئمة المفسرين، قتادة بن دعامة السدوسي هذا مشهور من أئمة التابعين، ومجاهد رضي الله عنهما، مجاهد بن جبر من أئمة المفسرين، من تلاميذ ابن عباس، أخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

المتن: ونحوه قال الشعبي.

الشيخ: والشعبي أيضا من أئمة المفسرين.

المتن: وإبراهيم

الشيخ: إبراهيم النخعي.

المتن: والضحاك

الشيخ: الضحاك بن مزاحم

المتن: والزهري.

الشيخ: مُحَمَّد بن شهاب الزهري الإمام الجليل المشهور وهومحدث.

المتن: وعلى هذا القول: "الثياب" عبارة عن النفس، والعرب تكني بالثياب عن النفس ومنه قول الشمَّاخ.

الشيخ: الشمَّاخ شاعر من شعراء العرب.

المتن:

رَمَوْهَا بِأَثْوَابٍ خِفَافٍ فَلا تَرَى لَهَا شَبَهًا إلا النَّعَامَ المُنَفرَا

رموها يعنى الركاب بأبدانهم.

الشيخ: يعني ركائبهم شبَّه بالنعام الهارب من شدة عدوها، يمدح هذه المركوبات من الإبل.

المتن: وقال عنترة:

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيابَهُ لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَى بِمُحَرَّمِ

يعنى نفسه.

الشيخ: عنترة من فرسان العرب المشهورين، يقول عن خصمة الذي تبارز معه في المعركة:

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيابَهُ لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَى بِمُحَرَّمِ

هذا من معلقاته.

المتن:وقال في رواية الكلبي: يعنى لا تغدر، فتكون غادرًا دنس الثياب.

الشيخ: ثيابك فطهر، يعني لا تكن غادرا، والغدر يدنس النفس والقلب.

المتن: وقال سعيد بن جبير: "كان الرجل إذا كان غادرا قيل: دنِس الثياب، وخبيث الثياب" .

الشيخ: يعني النفس.

المتن:وقال عكرمة: "لا تلبس ثوبك على معصية، ولا على فُجْرة" وروى ذلك عن ابن عباس، واحتج بقول الشاعر:

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لا ثَوْبَ غَادِرٍ لَبِسْتُ وَلا مِنْ خِزْيَةٍ أَتَقَنَّعُ

الشيخ: أنا نقي ما أخفي الجرائم مطهر النفس.

المتن: وهذا المعنى أراد من قال في هذه الآية "وعملك فأصلح".

الشيخ: طهر أعمالك من الشرك والبدع.

المتن: وهو قول أبي رَزين ورواية منصور عن مجاهد وأبي رَوْق.

الشيخ: القول الأول: المراد بثيابك يعني نفسك، وهذا القول المراد بثيابك يعني أعمالك.

المتن:وقال السُّدى: يقال للرجل إذا كان صالحا: إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجراً: إنه لخبيث الثياب.

الشيخ: لأن الثياب هي الأعمال في الحقيقة، الثياب على قسمين:

- ثياب حسية : وهي ما تلبسه من المنسوجات، تتجمل به.
- وثياب معنوية: وهي الأعمال الصالحة.

الله سبحانه وتعالى قال ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ [الأعراف: ٢٦] هذا اللباس الحسي، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ هذا اللباس الثاني، اللي هو الأعمال، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ خير من الثياب المنسوجة، كون الإنسان يتجمل بالتقوى هذا خير من أن يتجمل بالثياب المنسوجة، وإن كان التجمل بالثياب مطلوب؛ ولكن لا يقتصر عليه بل يتجمل بالتقوى.

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا وإن كان كاسيا

المتن: المتن:وقال السُّدى: يقال للرجل إذا كان صالحا: إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجراً: إنه لخبيث الثياب.

قال الشاعر:

لا هُمَّ إنَّ عَامِرَ بْنَ جَهْمِ أوْذَمَ حَجا في ثِيابٍ دُسْمِ

الشيخ: لا همَّ يعني اللهم، تخفيف.

المتن:

لا هُمَّ إنَّ عَامِرَ بْنَ جَهْمِ أوْذَمَ حَجا في ثِيابٍ دُسْمِ

يعنى أنه متدنس بالخطايا، وكما وصفوا الغادر الفاجر بدنِس الثوب وصفوا الصالح بطهارة الثوب.

الشيخ: طهارة معنوية، الثوب هنا معناه معنوي.

المتن: قال امرؤ القيس

الشيخ: الشاعر المعروف الذي هو أقدم شعراء العرب ومعلقته مشهورة.

المتن: قال امرؤ القيس:

ثِيابُ بِني عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ

يريد أنهم لا يغدرون، بل يفون، وقال الحسن: "خُلقَك فحسنه"

الشيخ: قال الحسن البصري: ثيابك فطهر يعني خلقك فحسنه، وكلها معاني متقاربة تحتملها الآية.

المتن: وقال الحسن: "خُلقَك فحسنه" وهذا قول القرظي.

الشيخ: عطية القرظي.

المتن: وعلى هذا: الثياب عبارة عن الخلق؛ لأن خلق الإنسان يشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه، وروى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية "لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طيب"

الشيخ: نعم وهذا تفسير آخر أن المراد بالثياب الثياب الحسية المنسوجات، لا تلبس ثيابًا إلا وهي طاهرة من الحرام، لا يكون فيها ما ثمنه حرام، تشتري ثياب بدراهم محرمة من ربا أو كسب خبيث؛ ولهذا جاء في الحديث «يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لذلك؟»

المتن: وروى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية "لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طيب" والمعنى طهرها من أن تكون مغصوبة، أو من وجه لا يحل اتخاذها منه.

الشيخ: خلي ثيابك من كسب حلال.

المتن: وروى عن سعيد بن جبير: "وقلبك ونيتك فطهر" .

الشيخ: نعم زاد النية.

المتن: وقال أبو العباس: الثياب اللباس، ويقال: القلب، وعلى هذا ينشد:

فَسُلِّي ثِيابِي مِنْ ثِيابِكِ تَنْسُل.

وذهب بعضهم في تفسير هذه الآية إلى ظاهرها، وقال: إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة.

الشيخ: هذا تفسير آخر أن المراد باثياب الملبوسة تطهرها من النجاسة للصلاة لأنه يشترط للصلاة طهارة البدن وطهارة الثوب وطهارة البقعة من النجاسة، والآية تحتملها، كل هذه المعاني تدخل في الآية.

المتن: وذهب بعضهم في تفسير هذه الآية إلى ظاهرها، وقال: إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة.

الشيخ: وهذا التفسير ذكره الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب في ثلاثة أصول.

المتن: إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة، وهو قول ابن سيرين، وابن زيد.

الشيخ: والآية شاملة لهذه المعاني.

المتن: وذكر أبو إسحاق: "وثيابك فقصر" قال: لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة.

الشيخ: قصر يعني بعدم الإسبال، يعني ارفعها عن الإسبال؛ لأن الإسبال محرم؛ ولأنه عرضة لأن تتنجس إذا مرت بالنجاسات، إذا كانت نازلة ومررت على نجاسة تتنجس بها، فهذا من فوائد تقصير الثياب أنه يجنبك الإسبال ويجنبك أيضا النجاسات.

المتن: وذكر أبو إسحاق: "وثيابك فقصر" قال: لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة، فإنه إذا انجر على الأرض لم يؤمن أن يصيبه ما ينجسه، وهذا قول طاوس، وقال ابن عرفة "معناه: نساءك طهرهن"

الشيخ: قوله تعالى﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ويطلق اللباس أيضا على المرأة، ويطلق على الزوج، الزوج لباس لزوجته والمرأة لباس لزوجها، طهرها يعني: إختارها من النسب الطيب التقي، إختيار الزوجة.

المتن: وقال ابن عرفة "معناه: نساءك طهرهن" وقد يكنى عن النساء بالثياب واللباس. قال تعالى:﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] ويكنى عنهن بالإزار.

الشيخ: يعني المرأة.

المتن: ومنه قول الشاعر:

أَلا أَبْلِغْ أبَا حَفْصٍ رَسُولاً فِدًى لَكَ مِنْ أخِي ثِقَةٍ إزَارِي

الشيخ: رسولا يعني الرسالة، الرسالة يطلق عليها رسول، ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦﴾[الشعراء: ١٦].

المتن: ومنه قول البراء بن معرور للنبي ﷺ ليلة العقبة.

الشيخ: البراء بن معرور من سادات الأنصار، الذين بايعوا الرسول ﷺ عند جمرة العقبة، كان الرسول ﷺ يحبه ومات في أول هجرة الرسول ﷺ، فصار يزور قبره ووضع عليه حجراً ليعرفه وكان يزور قبره.

المتن: ومنه قول البراء بن معرور للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة العقبة: "لَنَمْنَعَنّكَ مِمّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا".

الشيخ: يعني نساءنا.

المتن: أي نساءنا قلت: الآية تعم هذا كله.

الشيخ: إي نعم، لا تظن أن هذا الاختلاف اختلاف مذموم، هذا محمود لأن كل واحد من المفسرين أخذ بمعنى من معاني الآية، فهو من اختلاف التنوع في التفسير، وكل اختلافات المفسرين من هذا القبيل، إختلاف تنوع.

المتن: قلت: الآية تعم هذا كله.

الشيخ: كل هذه المعاني

المتن: وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلك لفظا فإن المأمور به إن كان طهارة القلب، فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك، فإن خبث الملبس يكسب القلب هيئة خبيثة، كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك، ولذلك حرم لبس جلود النمور والسباع بنهى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ذلك في عدة أحاديث صحاح.

الشيخ: كما مر بنا أنه لا يجوز استعمال جلود النمور والسباع لا افتراشًا ولا لباسًا ولا ركوبًا، ما الركوب عليها، محرمة.

المتن: بنهي النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ذلك في عدة أحاديث صحاح لا معارض لها، لما يكتسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات.

الشيخ: لأنك إذا جلست عليها يسري إليك شيء من أخلاق تلك الحيوانات السَبُعية المتوحشة.

المتن: فإن الملابسة الظاهرة تسرى إلى الباطن، ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور لما يكسب القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفخر والخيلاء.

الشيخ: الخاتم من الذهب ولبس الحرير للرجل لا يجوز، كلاهما حرام، لما يسببه على اللابس من خبث النفس وميوعة أيضًا، يصير فيه ميوعة كميوعة النساء، وفيه خيلاء وتكبر على الفقراء، الفقراء ما يجدون ما يأكلون وانت تلبس حرير وتتختم بالذهب، هذا يكسر قلوب الفقراء.

المتن: والمقصود: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها.

الشيخ: يعني طهر ثيابك وطهر قلبك وطهر نفسك، هذا كله مطلوب.

المتن: والمقصود: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها، فالمقصود لنفسه أولى أن يكون مأموراً به وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس، فلا يتم إلا بذلك، فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا.

الشيخ: نعم والقرآن واسع الدلالات وهذا من إعجاز القرآن اللغوي الذي لا يشبهه كلام أحد.

المتن: وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: ٤١] عقيب قوله: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾

الشيخ: يعني أن اليهود يستمعون إلى الذين يحرفون كلام الله في التوراه ويغيرون كلام الله، هم يسمعون هذا ويقبلونه، اليهود، ولذلك قال الله جل وعلا ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ يعني لم يرد هذا إرادة كونية قدر الله عليهم ذلك عقوبة لهم بسبب فعلهم.

المتن: وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: ٤١] عقيب قوله: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾

الشيخ: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ إن قال لكم الرسول مُحَمَّد ﷺ مثل هذا اقبلوا منه، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ السحت اللي هو الحرام، هذا من صفات اليهود؛ لأن الله لم يرد أن يطهر قلوبهم، ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ وقيل إن هذا في رجم الزانية؛ لما زنت امرأة من اليهود قالوا نذهب إلى مُحَمَّد ننشد حكمها، قال الرسول ﷺ أليس عندكم ذلك في التوراة؟

قالوا: لا ما هو في التوراة، الرسول طلب التوراة، نشروها وإذا آية الرجم هي، يريد أن يقيم الحجة عليهم ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يعني إن أوتيتم أن ما ترجم خذوه، إن كان الرسول حكم إنها ما تُرجم خذوا هذا، ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ حكم بالرجم فاحذروا، هذه طبيعة اليهود.

المتن: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفا للحق عن مواضعه.

الشيخ: تعود هذا، اللي يستمع إلى الكذب يستمع إلى تحريف الكلام يتعود هذا، بعد ذلك لا يقبل الحق ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾

المتن: فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه.

الشيخ: كما قالوا: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾

المتن: فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه إن قدر على ذلك، وإلا حرَّفه.

الشيخ: حرَّفه يعني غير معناه، التحريف يكون باللفظ مثل لما قيل لبني إسرائيل قولوا حطة يعني حط عنا ذنوبنا، حطة استغفار هذا، هم غيروه وقالوا حنطة زادوا النون هذا تحريف للفظ والعياذ بالله، وقد يكون التحريف للمعني، اللفظ يسلم لكن يغيرون المعنى ويفسرونه بغير تفسيره هذا تحريف.

المتن: فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه إن قدر على ذلك، وإلا حرَّفه، كما تصنع الجهمية بآيات الصفات وأحاديثها.

الشيخ: الجهمية ما تستطيع تمسح الآيات، ماذا فعلت؟ فسرتها بتفسير باطل، حرفتها معنويا ولم تستطع أن تحرفها لفظيا، وإلا ودهم أنهم يحرفونها لكن ما يقدرون، القرآن محفوظ؛ ولهذا جاء الجهمي إلى عمرو بن العلاء، أحد القراء السبع، وقالوا نريدك أن تقرأ ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهَ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] بدل ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾ لأجل أن يكون الذي كلم الله هو موسى، لم يكلم الله موسى، قال هب لي فعلت ذلك؟ ما تصنع في قوله ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣] عند ذلك إندحر الخبيث فهو يحاول تحريف اللفظ.

المتن: كما تصنع الجهمية بآيات الصفات وأحاديثها، يردون هذه بالتأويل الذي هو تكذيب لحقائقها، وهذه بكونها أخبار آحاد لا يجوز الاعتماد عليها.

الشيخ: ومن تحريفهم قولهم إن أخبار الآحاد لا تفيد العلم ولا يعتمد عليها في العقائد، وهذا باطل؛ لأن كل ما صح عن الرسول ﷺ سواء متواترًا أو آحادًا يجب اعتقاده.

المتن: وهذه بكونها أخبار آحاد لا يجوز الاعتماد عليها في باب معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته.

الشيخ: يقولون هذا قبحهم الله

المتن: فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنها لو طُهِّرت لما تعوضت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله.

الشيخ: الشقاوة أدركتهم وإلا ماذا يضرهم لو فسروها بمعناها الصحيح؟! ماذا يضرهم؟! لكن الله لم يرد أن يطهر قلوبهم ، ما يقبلونها،

المتن: كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوّضوا بالسماع الشيطانى عن السماع القرآنى الإيمانى.

الشيخ: الصوفية لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالأناشيد والأغاني عن سماع القرآن.

المتن: كما أن المنحرفين من أهل الإرادة.

الشيخ: أهل الإرادة يعني الصوفية.

المتن: كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوّضوا بالسماع الشيطانى عن السماع القرآنى الإيمانى.

الشيخ: السماع يعني الغناء، أخذوا قرآن الشيطان وتركوا قرآن الرحمن، وهكذا من أعرض عن الحق يُبتلى بالباطل عقوبة له.

المتن: لما لم تطهر قلوبهم تعوّضوا بالسماع الشيطانى عن السماع القرآنى الإيمانى، قال عثمان بن عفان ﷺ: "لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله".

الشيخ: يقول عثمان ﷺ "لوطهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله"، هذا معناه أنه يحقِّر نفسه ﷺ؛ وإلا فهو ممن تبحر في القرآن، ويحب القرآن ويتلوه دائما، ويقوم به في الليل؛ لكن الإنسان ما يعجب بنفسه ولا يزكي نفسه.

المتن: فالقلب الطاهر، لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث، لا يشبع من القرآن، ولا يتغذى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله تعالى، فإنه يتغذى من الأغذية التى تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة.

الشيخ: كما ذكر عن الصوفية أنهم تركوا سماع القرآن وذهبوا إلى سماع الشيطان وهو الغناء.

المتن: فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائمه الأغذية التى تلائم الصحيح.

الشيخ: نعم المريض ما يقبل الأغذية الجيدة يكرهها بسبب المرض، هذا مرض البدن، ومثله وأشد مرض البدن أيضًا، مريض القلب ما يقبل الحق ولا يقبل القرآن مثل المريض اللي ما يقبل الطعام.

المتن: ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى.

الشيخ: نعم لم **يرد الله**، دل على أن طهارة القلب مربوطة بإرادة الله، وأن الله إذا لم يردها لم يطهر القلب، المسلم يتوكل على الله ويسأل الله ان يصلح قلبه﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]لأن القلوب بيد الله.

المتن: ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى، وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل، المحرفين للحق، لم يحصل لها الطهارة.

الشيخ: عقوبة لهم، لم يرد طهارة المحرفين للحق القابلين للباطل عقوبة لهم، حرمهم الله سبحانه وتعالى ذلك.

المتن: ولا يصح أن تفسر الإرادة هاهنا بالإرادة الدينية.

الشيخ: لا، الله أراد شرعا ودينا أن يطهر قلوبهم لكنهم لم يقبلوا هذا، فلم يرد تطهيرها قدرا؛ لأن الإرادة على قسمين:

- إرادة شرعية
- وإرادة قدرية

المتن: ولا يصح أن تفسر الإرادة هاهنا بالإرادة الدينية، وهى الأمر والمحبة، فإنه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمرا ومحبة، ولم يرده منهم كونا.

الشيخ: عقوبة لهم.

المتن: فأراد الطهارة لهم، ولم يرد وقوعها منهم، لما له في ذلك من الحكمة التى فواتها أكره إليه من فوات الطهارة منهم.

الشيخ: لأنهم لا يريدون الحق، ما داموا لا يريدون الحق فلا يسمعون كلام الحق أبدا، يسمعون الكلام الذي يلائمهم ويطابق لرغبتهم، هكذا.

المتن: وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير في القدر.

الشيخ: نعم لعله شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل.

المتن: ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه فلا بد أن يناله الخزى في الدنيا والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه.

الشيخ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: ٤١] عقوبة في الدنيا وعقوبة في الآخرة.

المتن: ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه فلا بد أن يناله الخزى في الدنيا والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه، ولهذا حرم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخَبَث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره.

الشيخ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] لا يدخل الجنة إلا الطيبين، الجنة دار الطيبين، ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

المتن: ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره فإنها دار الطيبين. ولهذا يقال لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]

الشيخ: كما في سورة الزمر

المتن: أي ادخلوها بسبب طيبكم، والبَشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

الشيخ: في سورة النحل.

المتن: فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث. فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية، كالكافر، لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها.

الشيخ: إن كان فيه خبث المعاصي وشيء من الكبائر فهذا يُطهر في النار يُدخل في النار أولا، ثم إذا تطهر يُخرج من النار ويدخل الجنة، وهذا في أصحاب الكبائر التي دون الشرك، قد يُطهرون في النار، ما يدخل الجنة إلا طاهر، إما من الأصل وإما بعد تطهيره في النار.

المتن: فإن كانت نجاسته عينية، كالكافر، لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها، حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار.

الشيخ: مما يدل على هذا حديث أهل الجنة، أو المؤمنون إذا جاوزوا الصراط بأعمالهم ولم يسقطوا يوقفون ويقتص لبعضهم من بعض حتى يُطهروا من حقوق الناس، ثم يدخلون الجنة.

المتن: حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فيهَذَّبون وينقَّون من بقايا بقيت عليهم، قصرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هُذبوا ونُقوا أذن لهم في دخول الجنة، والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفا على الطهارة، فلا يدخل المصلى عليه حتى يتطهر.

الشيخ: نعم، هذا شيء واضح، ما يدخل في الصلاة دخول على الله تعالى ووقوف بين يديه حتى يتطهر من الحدث ومن النجاسة في الثوب والبدن والبقعة، لا يدخل على الله إلا بعد ما يتطهر.

المتن: والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفا على الطهارة، فلا يدخل المصلى عليه حتى يتطهر وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفا على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر، فهما طهارتان:

- طهارة البدن.
- وطهارة القلب.

ولهذا شرع للمتوضئ أن يقول عقيب وضوئه: "أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إِلا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ المتَطَهِّرِينَ".

الشيخ: إذا تطهر بالماء من الحدث يتطهر بالشهادة، بالشهادتين من الشرك، يجمع بين الطهارتين، طهارة من الشرك وطهارة من الحدث، حتى يدخل في الصلاة.

المتن: "اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ المتَطَهِّرِينَ" فطهارة القلب بالتوبة، وطهارة البدن بالماء، فلما اجتمع له طهوران صلح للدخول على الله تعالى.

الشيخ: في الصلاة يعني

المتن: صلح للدخول على الله تعالى والوقوف بين يديه ومناجاته.

الشيخ: هذا يكفي.